الحمد لله الذي من فأفضل، وأعطى فأجزل، وأنعم فتكرم، له المنة على من هداه، ولا إله لنا سواه، والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، اللهم لا علم لنا إلا من علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم زدنا علمًا وهدى وتقى، واجعلنا يا ربنا ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر.

وكما سمعنا عن عنوان المحاضرة «منهج الأنبياء في التعامل مع المخالف»، كان الناس قبل بعثة نوح -عليه السلام- كانوا على الحق والهدى، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] الآية، يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كانوا كلهم على الحق والهدى، ثم حصل بعد ذلك بينهم الخلاف والشرك وعبادة غير الله.

فأول نبي بعثه الله تعالى هو نوح -عليه السلام-، وهذا يعطينا دلالة على أن الأنبياء -عليهم السلام- ابتعثهم الله تعالى لإصلاح الأرض بالتوحيد، كل الأنبياء، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

فجاء هؤلاء الأنبياء بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، ونبذ عبادة غير الله؛ أي الشرك بالله، فهذا هو منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله -جل وعلا-، دعوة الناس إلى التوحيد، والإقلاع عن الشرك، ووسائله وأسبابه، وكل نبي جاء بهذه الدعوة، ولذا تجد في القرآن الكريم أن الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى من لدن نوح إلى نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- كلهم جاؤوا بهذه الدعوة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]؛ أي دين الأنبياء كلهم هو الإسلام، أصول الإسلام، أما فروع الإسلام فإنها مختلفة بحَسَبِ كل نبي، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

هذه هي حال الأنبياء، والحديث هنا في مسائل حتى يتضح بذلك المقام وتحصل به الفائدة.

أول هذه المسائل: أن الإيمان بالرسل والأنبياء هو ركن من أركان الإيمان، والله تعالى أمر بالإيمان بالأنبياء والرسل كلهم، ويجب على المسلم أن يعتقد هذه العقيدة وهي الإيمان، ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وأيضًا يعتقد المسلم أن الله تعالى قد بعث في كل أمة رسولا يدعوهم إلى توحيد الله وإلى عبادته سبحانه، لم يأت في القرآن حديث عن أحوال الأنبياء إلا الشيء اليسير، يعني أحوالهم الاجتماعية أو أحوالهم الاقتصادية والأمنية شيء يسير، وإنما التركيز على هذه القضية الكبرى، قضية التوحيد.

ثم أيضًا يعتقد المسلم الإيمان بجميع ما ذكره الله تعالى في كتابه عن الأنبياء والرسل والإيمان بما لم يذكره ربنا -جل وعلا-؛ لأن الله تعالى لم يذكر من الأنبياء إلا خمسة وعشرين، وقال سبحانه: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وجاء في آية أخرى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾ [الروم: ٤٧]، بين فيها ربنا -جل وعلا- أن هناك رسلًا لم يقصصهم الله علينا، ولكن يجب الإيمان بذلك.

ومما يجب على المسلم اعتقاده أيضًا في الأنبياء والرسل أن آخر الأنبياء هو محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- هو خاتم النبيين، لا نبي بعده، ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فلا نبي بعده، كما أن كتابه لا كتاب بعده، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وينبغي للمسلم أن يعتقد في هؤلاء الأنبياء -عليهم السلام- أنهم قد بلغوا رسالات ربهم، وأدوا الأمانة التي تحملوها من عند الله -جل وعلا-، هذا ينبغي اعتقاده، ولذلك من لم يؤمن بهؤلاء الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى فقد ضل عن سواء السبيل، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، الإيمان بجميع الرسل كلهم.

ومن زعم من الناس أنه يؤمن ببعض الأنبياء ويكفر ببعضهم فهذا لا يقبل منه أيضًا، فهو عند الله كافر، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، فيجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل ابتداء من آدم -عليه السلام- إلى نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-، واجب على المسلم شرعا وعقيدة أن يعتقد ما تقدم ذكره، يجب على المسلمين تجاه الرسل؛ لأن هؤلاء الرسل دعوتهم واحدة، أبوهم واحد وأمهاتهم شتَّى، ودعوتهم واحدة إلى دين الله وإلى توحيده وعبادته وإخلاص الدين له.

والله -جل وعلا- قد قص علينا قصص الأنبياء والرسل في كتابه، وكرر ذلك مرارا، كما جاء في سورة الأعراف، وتكرر أيضًا في سورة هود، وتكرر في بعض السور كسورة طه وسورة الشعراء والمفصل، وسور المفصل جاء فيها الكلام عن الأنبياء وعن الرسل.

لأن القرآن العظيم كما يقول ابن القيم: يدور على الخبر والإنشاء، القرآن يدور على الخبر والإنشاء وهذه قاعدة قرآنية، والإنشاء في ثلاثة: في الأمر والنهي والإباحة، والخبر إما خبر عن الله، أو خبر عن خلقه.

وكذلك يعتقد المسلم تصديق هؤلاء الأنبياء والرسل بما جاؤوا به من عند الله، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وعلى المسلم أيضًا أن يعتقد موالاتهم جميعا، ومحبتهم، والحذر من عداوتهم، الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

وهذه الآية في سياق الكلام عن اليهود، الذين طعنوا في جبريل -عليه السلام- حينما نزل بالدعوة، ونزل بالقرآن على قلب النبي -عليه الصلاة والسلام- عادوه في ذلك، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُواً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ٩٧] الآية، قال

بعدها: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨] خص جبريل بعد أن ذكره في الملائكة، وهذا تخصيص له دَلالته في السياق.

ومن ذلك أيضًا أن يعتقد المسلم تفاضلهم فيما بينهم، وأنهم أي الأنبياء ليسوا على درجة واحدة، قد قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية.

ويعتقد المسلم أيضًا أن أفضل هؤلاء هم أولوا العزم الخمسة، الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فهؤلاء هم أولو العزم، وأفضل أولو العزم هو نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- ، الذي خصه الله تعالى بالتفضيل والتكريم وعلو المكانة، قال سبحانه في حق نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وأيضًا مما يدخل في الاعتقاد أن المسلم يصلي عليه ويسلم، الصلاة والسلام على الأنبياء، وتقرءون في سورة الصافات ﴿سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠]، ﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]، هذا كله أمر من الله تعالى بالصلاة والسلام عليهم.

لما كان هؤلاء الأنبياء بهذا المقام العظيم، والاصطفاء الكبير من الله تعالى؛ لأن الله اصطفاهم، الله تعالى يقول: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فالله تعالى قد اصطفاهم واجتباهم على غيرهم من سائر الناس ليحملوا رسالة الله تعالى إلى العباد في هذه الأرض.

هؤلاء الأنبياء الكرام لما كانت دعوتهم بهذا الحجم وهذه المكانة العظيمة لم يجدوا المكان مفتوحا لهم، بل واجهوا العداء، ونصب لهم الأذى في دعوتهم، والشيطان زين

لهؤلاء المشركين الذين عصوا الرسل، زين لهم الشيطان شبها كثيرا، ليصدهم عن اتباع الأنبياء؛ لأن الشيطان واقف بالمرصاد لدعوة الأنبياء، ولدعوة نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ويمكن قبل أن نذكر المنهج وهو الخلاصة، المنهج هو خلاصة الكلام في آخر الحديث، المسألة الثانية: أن نقول الشبه التي كان يلقيها الشيطان على لسان المشركين والمعاندين لدعوة الأنبياء، هناك شُبه طرحها الشيطان وتلقاها هؤلاء المعاندون وتشربت بها أفكارهم.

من هذه الشبه أولا: تزيين الشيطان لهم في دعائهم غير الله، وهذه قضية كبرى أبدأ القرآن فيها وأعاد مع الأنبياء، وأقوامهم، في أنهم كانوا يدعون غير الله -جل وعلا-، كانوا يؤمنون بالله هؤلاء المشركون يؤمنون بالله وأن الله هو الرازق الخالق المحيي المميت المدبر، ولئن سألتهم في القرآن كثير، ولئن سألتهم، ولئن سألتهم، والجواب هو الاعتراف، لكن في مسألة واحدة وهي توحيد الألوهية، صرفوا الدعاء لغير الله -جل وعلا-.

وقد شنع الله عليهم في كتابه في دعوتهم غير الله -جل وعلا-؛ لأنه لا يليق بالإنسان المخلوق أن يتوجه إلى مخلوق مثله، أو إلى جماد، أو إلى حجر، فيدعونه من غير الله، هذا هو الشرك بالله -جل وعلا-.

والآيات في الدعاء لغير الله كثيرة في القرآن في إبطال هذا التوجه السقيم الذي لا يصدر من عقل جاهل بالله -جل وعلا-.

والله تعالى قد ضرب لنا مثالا بليغا بديعا فيمن يدعو غير الله، هذا المثال ينبغي للمسلم إذا قرأه أن يتوقف عنده كثيرا يتأمل فيه، تصوير هذا المثال قبل قراءة الآية، إنسان عطشان أحرق الظمأ كبده، يريد ماءً، فيذهب إلى شاطئ أو إلى نهر، ويقف عند هذا النهر، تصوير الله تعالى للحالة هكذا، فيمد يديه هكذا إلى البحر فيقول: يا ماء، اسقني، السؤال هل يأتيه الماء؟ لا يأتيه، بالعقل لا يأتيه، ماذا قال الله: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن

دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [الرعد: ١٤]، هذا إبطال لحالهم، ليست هناك عقول راشدة تدعوهم إلى هذا.

أيضًا الله تعالى ضرب مثالا آخر، هذا ضربه مثال شبهه بالكاف ﴿كَبَاسِطِ﴾، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]؛ أي ضعُف العابد والمعبود.

لذلك فإن الأمثال التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم كلها تدور على هذه القضية الكبرى، قضية الشرك، قضية دعاء غير الله -جل وعلا-، والتوسع في هذه الشبهة يطول، لكني أذكرها على وجه الاختصار حتى يتضح بذلك المقام.

إذن: قلنا: الأولى في هذا تزيين الشيطان لهم في دعائهم غير الله -جل وعلا-.

من الشبه الثانية: -وهي ستُّ شُبَهٍ- من الشبه التي جاء ذكرها أيضًا في هذا بعد تزيين الشيطان لهم، إنكارهم للبعث والنشور، هذه طريقة الأنبياء معهم في المخالفة، إنكارهم للبعث النشور في هذا، والقرآن الكريم قد أبدأ وأعاد في هذه القضية الكبرى: إنكار البعث.

لأن المشركين حتى في زمن نوح -عليه السلام- وإلى زمن نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- كانوا ينكرون البعث، ويأتون بالحجج الواهية، أين آباؤنا الذين ماتوا؟ هل هم سيعودون؟ ينكرون ذلك، ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦، ١٧]، ينكرون هذه القضية.

قضية الدعاء لغير الله، وقضية البعث والنشور هي أكبر القضايا في القرآن الكريم، ضرب الله تعالى بها الأمثال، وأقام بها الحجج والبراهين على ذلك، حتى عند خلق الإنسان وتكوينه وأطواره التي مر بها، يذكرهم باليوم الآخر، في قول الله تعالى في سورة الحج: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج: ٥] إلى أن قال: ضرب مثال لهم حي: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ميتة

﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧]، حكى لهم القصة كاملة في خلقهم، ولم يأتِ بما يدور في الدنيا والمعيشة لا، جاء به مباشرة، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧]، ثم جاء أيضًا في آية أخرى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وبيَّن الأطوار التي مرَّ بها، ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ثم قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥]، ستُبعَثون وتُحاسَبون؛ لأن الله تعالى لم يخلق عباده عبثا، خلقهم لغاية عظيمة، وحكمة كبيرة وهي عبادته سبحانه. ولماذا خلقت الجنة والنار، وأنزلت الكتب وأرسلت الرسل لإقامة الحجج عليهم في هذا، ومع ذلك فإنهم ينكرون.

والعاقل يعلم أن الذي خلقه وسواه سوف يُعيده مرة أخرى، ولو قرأت في قصة نبي من الأنبياء لوجدت أنه يؤكد على هذه القضية في البعث، وضرب الله تعالى لهم الأمثلة بالأرض، وأعطى الله المشركين أيضًا البعث في الدنيا قبل الآخرة ليقيم عليهم الحجة، فيه ناس ماتوا في الدنيا وأحياهم الله، هذا يُسمَّى بعثًا، ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩] في الدنيا، وبنو إسرائيل نزلت عليهم الصاعقة وماتوا وأحياهم الله، قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦] في الدنيا هذا.

وأصحاب الكهف لما أماتهم الله ثم أحياهم، وأولئك النفر من بني إسرائيل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، هذا أين؟ في الدنيا ليبين الله تعالى قدرته الفائقة، وهي قُدرة لا تُغلَب، وقُدرة لا تُقهَر، ومع ذلك الإنكار حصل من هؤلاء الأقوام، وفي عهد نبينا -صلى الله عليه وسلم- كانت المحاجة في هذه القضية في قضية الدعاء وقضية البعث، حتى أُمَيَّة بن خَلَف ويقال: إنه العاص بن وائل جاء إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- فجاء بعظم بالٍ وفتته في

الهواء بين عيني النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال: أتزعم يا محمد أن الله يُعيد هذا؟! قال: «نَعَمْ، يُمِيتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ النَّارَ»، في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

الرد جاء مباشرة، ولا تجد شبهة في القرآن الكريم يثيرها عدو لهذا الدين إلا وفي القرآن ما يردها، أبدا لا توجد شبهة، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

وفي كلام لابن عباس في هذه الآية: فإذا جاؤوا بشبهة للنبي -عليه الصلاة والسلام- أو جاؤوا بشبهة للأنبياء السابقين من الشبه التي يثيرها الشيطان عليهم في القرآن يردها مباشرة، ولذلك في أول سورة البقرة لما ذكر الله تعالى عبادته، قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ذكر الله تعالى ثلاثة براهين تدلك على البعث لمن يقرأها، والقرآن كله دال على ذلك.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، بمعنى أن الله الذي خلق عباده في أول الأمر قادر على أن يعيدهم، قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، الإعادة أهون.

وذكرهم أيضًا بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] لماذا لا تتذكرون البعث، إذن: خلق فيها الخلق، ثم ذكر بعد ذلك خلق السموات والأرض، الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يعيد هؤلاء، ﴿بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

ثم بعد ذلك قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ على أرض ميتة لا تنبت ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أحياها، ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا

لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] لا تشركون مع الله في عبادته، فهذا هو البعث الذي ذكره الله تعالى، هذه الحجة الثانية.

الحجة الثالثة: أن هؤلاء الخصوم مع الأنبياء كانوا يحتجون بموروث الآباء وعوائد الأجداد، بموروث آبائهم وعوائد أجدادهم، ويكفيك أن تقرأ في قصة كل نبي هذا المعنى الذي أثاروه، هذه حججهم الباطلة، في قصة نوح قالوا ذلك، وفي قصة هود قالوا: ﴿يَاصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٦٢] يحتجون بموروث الآباء، ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧] هذه آية أخرى في سورة، عند شعيب.

وفي إبراهيم احتجوا بذلك، لما قال لهم: كيف تعبدون هذه الأصنام، قالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، قالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، احتجوا بآبائهم، وكذلك شعيب لما أمرهم بالتوحيد والعبادة، قالوا نحن نخطو على طريقة الآباء، قالوا: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧] كيف نترك طريقة آبائنا وهي طريقة ضالة، وكذلك قوم فرعون، فرعون وقومه أيضًا قالوا لموسى هذا الكلام، قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]، يأتون بالآباء، وقال الله تعالى عن المشركين ذلك في عهد النبي -عليه الصلاة والسلام- في آيات، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١]، وفي الآية الأخرى: ﴿مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠].

فأكثروا من الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم وموروث أجدادهم، وهذه حجة باطلة، لكن الشيطان زينها لهم.

الرابعة: وهي التشكيك في النبوات لكونهم بشرًا، قالوا ما يأتينا بشر، أنكروا أن يكون الرسول بشرا، وهذه شُبهة تواطأ عليها خصوم الأنبياء إلى عهد نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم-، قوم نوح ماذا قالوا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ..﴾ [هود: ٢٧] وأيضًا هود وشعيب قالوا ذلك، وفرعون قال ذلك، فرعون قالوا لموسى وهارون:

﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وفي عموم المرسلين كلهم احتجوا بهذا، وأبطلوا وطعنوا في رسالة الأنبياء لكونهم بشر.

رد عليهم النبي -عليه الصلاة والسلام- بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٧] الآية، فيبطلون دعوة الأنبياء بحكم أنها بشرية؛ لأن الله تعالى حكيم في خلقه، وفي دينه وشرعه، أرسل إليهم بشرا مثلهم؛ لأن لو أنزل عليهم ملكًا من السماء ما استطاعوا أن يروه، ولا أن يتعاملوا معه بحكم بشريتهم، اختلاف الجنس، الملائكة يختلفون عن البشر والجن يختلفون عن البشر كذلك، فالله تعالى أرسل لهم من جنسهم، مع ذلك كانوا يضللون الناس في هذا.

والخامس أيضًا: وصف الأنبياء بأوصاف لأبطال نبوتهم، وكل مسلم يقرأ هذه الأوصاف في القرآن، الوصف بالضلالة قالوها لنوح، ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، الوصف بالسفاهة قالوها لهود: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، والوصف بالضعف قالوها لشعيب ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١]، والوصف بالسحر قالها فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، وتعاقب عليه مشركو العرب الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، ووصفوا النبي بأوصاف يزهدون الناس ويبعدونهم عن الأنبياء، وصفوه بالسحر، وصفوه بالكهانة، وصفوه بالجنون، وصفوه بالشعر، وصفوه بأنه أتى بهذا القرآن من عند نفسه، ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤]، انظر الرد: ﴿فَقَدْ جاؤوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾، الرد مباشرة ما يتأخر الرد، هذه قاعدة تفهمونها في القرآن: ما من شبهة يُثيرها أهل الباطل إلا ويعقبها الله تعالى بالرد المباشر حتى يبطل هذه الشبهة التي أثاروها.

هذا هو تشكيك هؤلاء في الأنبياء -عليهم السلام-، كل الأنبياء قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ رسول هنا نكرة عام، ﴿إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] كل الأنبياء قالوا لهم ذلك.

وهذا من تزيين الشيطان، حتى إنهم قالوا للرسول لما جاء بهذا القرآن قالوا تعلمه من رجل، ورد عليهم قال الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾ [النحل: ١٠٣] تتكلمون عن واحد أعجمي، كيف هذا الكلام يكون، مع التسليم لهم إذا كنت تدعون وتزعمون أن القرآن من عند محمد اكتتبه، لماذا لا تأتون بمثله، وهو بشر مثلكم، لكن القرآن هو كلام الله، وحي منزل، ما يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولذلك تحداهم الله تعالى في مواطن، تحداهم في مكة، وفي المدينة أيضًا.

مشركو العرب قريش، تحداهم في مكة في سورتين أو في ثلاث، في سورة هود، وفي سورة يونس، وفي سورة القصص، ولم يستطيعوا، وتحداهم مرة أخرى في المدينة، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، فأتوا هذا أمر، والأمر هنا بمعنى التعجيز.

مثل قوله تعالى عن الجن: ﴿فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، هذا تعجيز؛ لأن الأمر أحيانا يكون للتعجيز، وأحيانا يكون للتسوية، وأحيان يكون للدعاء، وأحيانا يكون للطلب كما هو مقرر في علم البلاغة، ولم يستطيعوا.

وجاءت الآية المكية في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، متعاونون كلهم، من في هذه الأرض من جنها وإنسها ما يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن لأنه كلام الله المنزل لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فلذلك في قرارة أنفسهم يقرون لكنهم ينكرون ذلك باستكبار، هذا ما يتعلق بوصف الأنبياء.

الخامسة: التشكيك في الكتب المنزلة، الشيطان يوقع في قلوبهم التشكيك في هذه الكتب المنزلة، التشكيك في الكتب المنزلة كان من عادة خصوم الأنبياء، ولهذا قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، هذا كلامهم، ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ ولم يستطيعوا ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

وقالوا في القرآن: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، وسموا القرآن مفترى، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [يونس: ٣٨]، التشكيك في الكتب المنزلة على الأنبياء أو التشكيك في الرسالات التي أرسل بها الأنبياء يشكك فيها المشركون حتى يَصرفوا الناس عنها، ماذا فعل النضر بن الحارث عندما نزل القرآن، قام وصعد على الجبل وأعلن للناس ألا يسمعوا لهذا القرآن، قال الله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] يحث الناس على عدم سماع القرآن، وأيضًا يحثهم على الطعن في القرآن الكريم، هذا هو النضر بن الحارث؛ لأنه هو الذي يتحدث باسم كفار قريش، المتحدث واحد والذي أخبر الله جمع، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لأنه يتحدث باسمهم وهذه صيغة إعلامية.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، ما الرد؟ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الرد مباشرة ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [فصلت: ٢٧]، جاءهم الرد مباشرة، إذن: كانوا يشككون في هذه الكتب تشكيك حتى لا يتبعها الناس.

وهذه آثارها الشيطان الذي لعنه الله تعالى في كتابه بأن يُلقيها في قلوب هؤلاء، ولهم أتباع في كل زمان ومكان؛ لأن الشيطان ما زال يُلقي، لذلك لما جاء الحديث عن بعض الرسل والأنبياء جاء ذكر الشيطان وجاء ذكر العذاب، في سورة العنكبوت قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * وَعَادًا

وَثَمُودَ﴾ [العنكبوت: ٣٦- ٣٨] بعدهم ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، كانوا يعلمون، لكن الشيطان هو الذي صدهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]، نزل العذاب ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، ذكر الآية بعدها مثل يبين بطلانهم ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

لما نزلت هذه الآية ونزلت الآية التي في سورة البقرة ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، استنكر المشركون واليهود هذا الضرب بهذه الحشرات القليلة الصغيرة، رد الله تعالى عليهم بهذا في الآية التي بعدها: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، الردود موجودة في القرآن، فلا يتأخر الرد، حتى يُقيم الحجة عليهم.

والله تعالى يضرب الأمثال للناس حتى يَعلموا الحق من الباطل؛ لأن ضرب الأمثال يقرب للإنسان المعنى، الشيء المحسوس في الذهن، يحتاج إلى بيان في الواقع، الشيء المحسوس يحتاج إلى شيء معقول حتى يُعرف، وهذا في ضرب الأمثال كثير.

حتى إن الله تعالى ضرب لهم الأمثلة في الإيماء والعبيد المماليك، ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، اثنان يتنازعون واحدًا، هل يستويان مثلا؟ ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، وضرب لهم من أنفسهم عندهم مماليك هل تجعلون أنفسكم مثلهم، ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾

[الروم: ٢٨]، ما أنتم فيه سواء، فكيف تُساوون الله تعالى بأصنام وأحجار وجمادات، هذا سفاهة في العقل في هذا.

المسألة التي تليها أيضًا ننتقل إليها بعد أن بينا هذه الحجج والشبهات الباطلة التي يذكرها هؤلاء المشركون مع الأنبياء جميعًا.

من منهج الأنبياء في التعامل مع المخالف، من منهجهم: الصبر في الدعوة وتحمل الأذى؛ لأن الأنبياء صبروا على ما واجهوا، مع أنهم كذبوا في دعوتهم، وثبتهم الله تعال بالصبر على ذلك، وجاءت التسلية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي يقتدي بالأنبياء السابقين قبله؛ لأن الأنبياء كذبوا في دعوتهم، ولم يؤمن معهم إلا القليل، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] كل الأنبياء الذين دعوا إلى توحيد الله، كذبوا في دعوتهم ولم يؤمن معهم إلا القليل.

ولما جاء نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- وبعث لهذه الأمة ذكره الله تعالى بهذا الذي حصل لمن قبله من الأنبياء، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، يعني صبروا وأُوذوا على العداء، جاءهم عَدَاء وجاءهم أذية ومع ذلك صبروا على دعوتهم؛ لأن النبي -عليه الصلاة والسلام- كان يُحب أن يَهتدي الناسُ كلُّهم، ولكن الدعوة والبلاغ واجبان على الرسل ولكن الاستجابة من الله -جل وعلا- ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وأخبره الله تعالى أن يصبر كما صبر أولو العزم، قال في آخر سورة الأحقاف: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥] الآية، ولما جاءت بداية الدعوة في سورة المدثر والمزمل جاء فيها الحث على الصبر؛ لأن الله تعالى يقول لنبيه: إنك ستتحمل أعباء هذه الدعوة وفيها ما فيها من المشقة والتعب والأذى، فشمر عن ساعديك، وتحمل ما يأتيك، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ

وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، هذا في سورة المزمل، وبعدها أيضًا لما قال ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢] قال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]، هذه دعوة تحتاج إلى صبر.

وجاء الصبر متكررًا في السور المكية، تكرر في السور المكية كثيرًا أيضًا؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- مكث في مكة ثلاثة عشر عامًا، وفي المدينة عشرة أعوام، وفي مكة كلها دعوة إلى التوحيد، لم تفرض جميع الفرائض، الصلاة فرضت صحيح لكن اكتمال جميع الفرائض اكتملت في المدينة، لذلك واجه -عليه الصلاة والسلام- من الأذى ما واجه حتى كان أبو بكر -رضي الله عنه- يطمئنه في ذلك، ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فالله تعالى حفظ نبيه من شر هؤلاء وعصمه من كيدهم ومن العدوان عليه، واستمر في دعوته حتى أتم الله هذا الدين، وأكمل النعمة على المسلمين به.

إذن: الصبر، ثم أيضًا من منهجهم: وضوح البيان الذي لا لبس فيه، هم يتكلمون بكلام يفهمونه، ويضربون لهم الأمثلة، ويعدونهم بالمغفرة، ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ [هود: ٣]، يعدونهم بالمغفرة والرضوان والجنة، ويحذرونهم من النار، بأساليب واضحة بينة يفهمها العاقل ويستجيب لها؛ لأن هذا القرآن بيان واضح وبلاغ بين، قال الله تعالى: ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، أولوا الألباب أولوا العقول يتذكرون في ذلك.

وأيضًا من منهجهم: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذا جاء في سياق بيان دعوة النبي -عليه الصلاة والسلام- في محاجته للمشركين، يعني كان الأنبياء يأتون إليهم بالموعظة اللينة، الرقيقة، والحكمة التي هي وضع الشيء في موضعه حتى يستجيبوا، لكن لما لم يستجيبوا يعاملونهم بشيء أقوى، كما سيأتي في الأمثلة، يعني يأتونهم بالكلام اللين الطيب المناسب الذي فيه احترام للعقل البشري، وإذا لم يستجيبوا أتوهم بما هو أشد من ذلك، ولهذا الله تعالى قال لنبيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩]، متى يغلظ عليهم ويشد عليهم؟ إذا عاندوا واستكبروا، يعني يحذرهم، ولكن

في البداية يعفو ويصفح، ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، في البداية، لكن في النهاية إذا لم يستجيبوا حذرهم.

من أيضًا مناهجهم: بيان الحق لكل مخالف على مستوى نفسه، يبينه لكل واحد، كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يذهب إلى أُبَيِّ بن خَلَف، ويذهب إلى عمه أبي طالب، ويذهب إلى ذلك اليهودي، وإلى غيرهم، يعني هو تطور في منهج التعامل مع هؤلاء المخالفين، ثم أيضًا يأتي لهم بعموم، بعد أن يأتي لهم بانفراد، يأتي لهم بعموم، بمعنى أن النصيحة للمخالف تكون بينك وبينه، هذا منهج، وإذا لم يستجب لذلك تحذره وتذكره وتعظه وتخوفه بالله، لكن قبلها تثني عليه بما فيه من الخير والصلاح لعله يستجيب لذلك.

نأتي إلى التطبيقات التي كان عليها الأنبياء:

التطبيق للكلام السابق: الآن نوح -عليه السلام- هو أول من بعثه الله تعالى للتحذير من الشرك، وتكرر قصة نوح في عدد من سور القرآن، إطنابا وإيجازا، لكنه بدأ معهم باللين، وجاء بكلمة (يا قوم)، ثم قال في آيات: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢]، اعترضوا وردوا قال: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٣- ١٥]، انظر إلى التدرج في منهج التعامل مع هؤلاء.

حتى في آخر السورة قال: ﴿رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، كأنه دعى عليهم في هذا لأنهم لم يستجيبوا، وجاء في سورة الشعراء مثل ذلك، بعد أن دعاهم ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥- ١٠٩]، كلام لطيف، لما لم يستجيبوا واشتد عدائهم قال: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء: ١١٧]، شكى إلى ربه، ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨]، طلب من ربه النجاة منهم، أدى الرسالة كاملة، فلما أدى الرسالة كاملة،

أمره الله تعالى بماذا؟ بصناعة الفلك ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]، يعني كأنه استعداد للغرق لهؤلاء، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ..﴾ إلى آخره، وبين الله تعالى بالتفصيل في سورة هود: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤١، ٤٢] وجاءتهم الأمواج وتلاطمت عليهم، وانفجرت السماء بالماء، وخرجت الأرض نبعت، ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، غرقوا كلهم جميعًا إلا نوح ومن معه.

انظر إلى قدرة الله -جل وعلا- في تعامل هذا النبي مع المخالفين، لم يأت من السماء فقط، وإنما من الأرض والسماء، أطبقت عليهم.

لكنه -عليه السلام- نادى ابنه، الشفقة والرحمة، وعاتبه الله تعالى في هذا: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، وفي قراءة ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦]، هذا نوح كيف وقف مع قومه وتغير منهج التعامل.

وهذا موسى كذلك، موسى -عليه السلام- لما أراد أن ينصح فرعون أمره الله تعالى ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]، ذكروه بما ذكروه به، حتى بدأ يرد عليهم فرعون، ويسألهم أسئلة، ويطلب منهم، حتى إنه من جبروته -فرعون- قال: وما رب العالمين؟ قال الله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]، لكن لما اشتد العداء والأذى من فرعون على موسى وهارون لأنه لم يستجب، لكن في آخر الدعوة ماذا قال له موسى: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، هذا رد قوي، هذا منهج.

ولما ذكر الله تعالى اشتداد قوم فرعون على موسى ومن معه في سورة الشعراء: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ البَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] لما خاف قومه، خاف قوم موسى من فرعون لما أدركهم، قال: ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ البَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا﴾ [الشعراء: ٦٢- ٦٤]

قربنا يعني فرعون ومن معه حتى يظن أنه سينجو، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾ [الشعراء: ٦٦]، غرق فرعون بعد أن دخل موسى البحر انطبق على فرعون، فغرق هو ومن معه، قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٧]، وكل نبي يأتي لقومه الذين لم يستجيبوا يأتي العقاب من الله لهم يتكرر في مثل هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

هذا هود -عليه السلام- أيضًا ماذا كان منهجه مع قومه في أول الدعوة، في سورة هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا﴾ [هود: ٥٢] حذرهم ﴿وَلاَ تَتَوَلَّوْا﴾ وبعد أن لم يستجيبوا وعاندوا واشتد الأذى، تغير المنهج، منهج التعامل معهم، هذا من القرآن، بعد أن اشتد عدائهم ورفضوا، قال لهم إني أشهد الله ﴿وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]، قال الله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٧، ٥٨].

كل نبي منهجه واضح في القرآن، يأتي بالرفق باللين، من استجاب فله الكرامة، ومن لم يستجب يتغير المنهج معه في هذا.

هذا إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه كان يدعو أباه وتقرأ الآيات كأنها تخاطبك الآن، في سورة مريم ماذا قال الله تعالى في بدايتها؟ ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، انظر ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، رفق، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٣- ٤٥]، أبوه عانده في ذلك وقال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [مريم: ٤٦]﴾، ثم بعد ذلك تبرأ منه إبراهيم، ولهذا تفسير هذه الآية أو بيانها مثل الآية التي في سورة الممتحنة، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ﴾، انظر الأسلوب تغير ﴿العَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ﴾

[الممتحنة: ٤]، الأول كان يقول: يا أبت يا أبت، الآن صار فيه بغضاء وفيه كراهية، منهج عظيم قرآني يبين ما يأتي من نسج الخيال، أو كيف يتعامل الإنسان مع المخالف، لذلك الدعاة إلى الله -جل وعلا- يسلكون هذا المنهج في التعامل مع المخالف لدين الإسلام، سواء كانوا من الفرق الضالة، أو من أهل الديانات المنحرفة، أيضًا يتعامل معهم بالرفق واللين، وإذا لم يكن ذلك كذلك، ينصرف عنهم؛ لأنه ليس معصومًا وليس بنبي.

وأيضًا لما جاء لقومه وهم يعبدون الأصنام، الانتقال إلى قومه بعد أبيه وهم يعبدون الأصنام، قال لهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ [الشعراء: ٧٤]، احتجوا بالآباء، لما لم يستجيبوا قال: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا﴾ [الأنبياء: ٥٧]، قسم، ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧، ٥٨]، هذا من إقامة الحجة العقلية عليهم، ثم إنهم اعترفوا ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٤، ٦٥] يعني اعترفوا أنهم على خطأ في هذا الأمر، ولم يستجيبوا أيضًا، الخلاصة أنهم قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وأضرموا نارا والكلام في هذا يطول، لكن انظر كيف تبرأ منهم إبراهيم الحليم الأواه المنيب، تبرأ منهم في هذا.

أما منهج نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي هو خاتم الأنبياء اقتدى بإخوانه الأنبياء؛ لأن الله تعالى أمره بذلك فقال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، أمره الله أن يقتدي بالأنبياء في الدعوة إلى الله، وكلما حصل في نفسه شيء من الضيق والحرج في عدم قبول الدعوة من المشركين، يذكره الله تعالى بما كان عليه الأنبياء، ويذكره بآيات يطمئنه فيها، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا﴾ [هود: ١٢] كذا وكذا، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفًا﴾

[الكهف: ٦]، هذا كله تأسية وتسلية وتطمين لقلب النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى ثبته الله تعالى على دينه وعلى شرعه.

وقف المشركون في دعوته وحاربوه وآذوه، واشتدت عداوتهم له حتى من أقربائه، أبو لهب عمه، عم النبي -عليه الصلاة والسلام-، وهو أشد من وقف في دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعد النبي -صلى الله عليه وسلم- على جبل ونادى أقرباءه وأرحامه، وذكرهم بالله، فجاء معهم أبو لهب، اسمه عبد العُزَّى، ولكن لقبه أبو لهب، ولم يذكر اسمه عبد العُزَّى؛ لأنه عبد لصنم، فترفع القرآن أن يذكر عبدًا لصنم، وإنما ذكره بلقبه، ولهب قيل لهب كان وجهه يتلألأ جمالًا، اللهب يتلألأ وجهه جمالًا من الجمال فيه، لذلك أطلقوا عليه أبو لهب، ولما جاء للنبي -عليه الصلاة والسلام- وهو يدعو، قال: تبا لك ألهذا جمعتنا، فقال: تبا، فنزلت الآية بنفس ما تكلم به، ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، بنفس اللفظ الذي جاء به هو، تبت يعني خسرت وقطعت يد أبا لهب هذا الذي تكلم في حق النبي -عليه الصلاة والسلام-، وامرأته أيضًا جميلة ساعدته في ذلك.

لما قيل له: سيأتيك العذاب، قال أنا عندي أموال وعندي أولاد سأفتديهم يوم القيامة بذلك، قال الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١، ٢]، لن ينفعه ماله في هذا، فسيأتيه الوعد من الله -جل وعلا-، ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

إذن: نقول: إن منهج النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في التعامل مع المخالف سار على ما سار عليه الأنبياء قبله، وقف المشركون في دعوته وآذوه، ولهذا جاءت الآية لتطمئن النبي -عليه الصلاة والسلام- بأن النصر سيأتي قريب ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ الأنبياء ﴿مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]؛ لأن هذا تمحيص، المسألة التمحيص في الدعوة إلى الله، هل يصبر أو لا يصبر، كذلك في التكاليف الشرعية التي كلف الله تعالى العباد، هل يصبرون على أدائها، والقيام بها على ما أراد الله -جل وعلا-، أم أنهم يكسلون ويملون، لا بد من الصبر لأن الله تعالى قد قال لنبيه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

فالصبر على أوامر الله وعلى القيام بها مآله إلى الخير والفلاح في الدنيا وفي الآخرة، وهكذا ﴿أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فهو -عليه الصلاة والسلام- وقف المشركون في وجهه، كما أيضًا لقي من اليهود بعد أن هاجر إلى المدينة لقي من اليهود ما لقي أنواعا من الأذى، آذوه في دعوته، وقللوا من شأنه، واتهموه، وأنزل الله تعالى آيات يطمئنه فيها، ﴿وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، تكملة الآية في سورة المائدة في هذا، ثم قال في آية أخرى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، قرنه بالصبر.

المسلم عندما يقرأ مثل هذه الآيات العظيمة، يقف عندها وقفات ويتأمل، هذا هو التدبر، ومع ذلك كان -عليه الصلاة والسلام- يعفو ويصفح عمن آذاه، لعل الله تعالى أن يهديه إلى الحق.

وقد ضرب -عليه الصلاة والسلام- أروع الأمثلة والمواقف والمنهج في قضية العفو والصفح؛ لأن الله تعالى قد جعله في خلق عظيم عال، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ويؤكد خلقه وموقفه مع المخالف ماذا كان يفعل معه، كان لا يعتدي عليه، إنما يبين له الحق، والاستجابة تكون من الله -جل وعلا-.

وتأمل أيضًا في الحوار الذي دار بين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وبين وفد نصارى نجران، هذه لا بد تقرأوها عند ابن كثير في سورة آل عمران، كانت دعوته لهم نزلت عليه هذه السورة إلى أن جاءت المباهلة، بينه وبينهم في الدعوى أن عيسى ابن الله،

ولهذا قال تعالى فيها: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، آدم خلق من غير أب وأم، وعيسى خلق من أم بلا أب، إذن: المعجزة في آدم -عليه السلام-، حتى رجع عدد من نصارى نجران أسلموا وآمنوا وصاروا دعاة عند قومهم هناك، وأخذوا في الدخول في الإسلام باختيارهم، معظمين لله، نافين عن الله تعالى الشرك في عبوديته، وكانت هذه دعوة عظيمة.

وتتجلى مواقف العفو والصفح مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وخصومه يوم فتح مكة، بعد الصلح فتح النبي -عليه الصلاة والسلام- مكة ودخل على قريش فجأة وهم لا يعلمون، فصعد على الجبل وقال: «مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟»، قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، كأنهم يعترفون، يظنون أنه سينزل عليهم عذاب، قال: «اذْهَبُوا، فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»، عفا عنهم -عليه الصلاة والسلام-، أعظم المواقف يسجلها -عليه الصلاة والسلام- في فتح مكة، فدخل إلى الحرم، ودخل إلى الكعبة، وهدم ما كان فيها من الأصنام وهم ينظرون، وهو يقول: ﴿قُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وهدم ثلاثمائة وستين صنما كانت معلقة على أستار الكعبة.

وكان يعفو ويصفح كثيرا، الذي سحره وهو لبيد بن معصم اليهودي، سحره، عفا عنه -عليه الصلاة والسلام-، وهو سحره، ولما قيل: لم عفوت عنه؟! قال: «شَفَانِي اللهُ وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ شَرًّا»، وعفا عن تلك المرأة اليهودية التي سمته في تلك الشاة، وعفوه مع أعدائه أيضًا في معركة بدر وغير ذلك.

فهو -عليه الصلاة والسلام- آتاه الله تعالى الخلق التام الكامل؛ لأن الله تعالى أدبه وقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وبهذا على المسلمين جميعا أن يقتدوا بنبيهم -صلى الله عليه وآله وسلم-، بخاصة الدعاة إلى الله -جل وعلا-، أن تكون دعوتهم باللين والرفق، فمن يستجيب فالحمد لله، ومن لم يستجب فأمره إلى الله، لأنه ليس من شرط الدعوة الاستجابة، الدعوة تبلغ والهداية من عند الله -

جل وعلا-، الهداية من الأنبياء ومن سائر الدعاة هي هداية دلالة وإرشاد، أما هداية القبول والتوفيق والإلهام فهي من الله -جل وعلا-.

هذا ما تيسر وإيراده من الكلام على منهج الأنبياء ولم أخرج عن مائدة القرآن الكريم وعن منهج القرآن الكريم لأنه الذي يضيء لنا الطريق ويبين لنا الحق فيما كان عليه الأنبياء والرسل، وما كان عليه نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم-.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا هداة مهتدين، واقفين عند حدود ربنا لا معتدين، متبعين لسنة نبينا لا مبتدعين، نسأل الله تعالى أن ييسرنا لليسرى، وأن يجنبنا العسرى، وأن يرزقنا التوفيق في الدنيا وفي الأخرى، نسأل الله تعالى أن يشفي مرضى المسلمين، وأن يحفظ المسلمين من شر أعدائهم، وأن يردهم إلى ربهم ودينهم ردا جميلا، وأن يوفقنا لطاعته واتباع مرضاته، وأن يديم على بلادنا وبلاد المسلمين جميعا الأمن والأمان، والاستقرار والاجتماع، وأن يوفق ولي أمرنا لما يحب ويرضى من الأقوال والأعمال، وأن يعز به الدين وأن يُعلي به الكلمة، وأن يجمع على يديه كلمة الإسلام والمسلمين.

وفي الختام، أشكر الله تعالى على ما من به من هذا اللقاء، ثم نشكر الإخوة القائمين على هذه المحاضرات الطيبة المباركة، التي يعدها هذا الجامع المبارك، بقيادة الشيخ فهد الغراب -وفقه الله تعالى-، وجعل ذلك في ميزان حسناته، والشكر لكم أنتم يا من حضرتم واستمعتم ونسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في موازين أعمالنا، وأن يجعله خالصا لوجه ربنا الكريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

حولت المادة الصوتية الى نصية كما القيت ولم تتم مراجعتها من قبل الشيخ